

به الحب والهيام أقصاه أغمد خنجره هذا الدقيق في صدرها هذا الناصع الجميل، وتلقى ما يفيض به هذا الينبوع من دمها الحار، فلعله أن يشفي ما كان يجد من هذا الظمأ الذي لا شفاء له. على أنه كان لا يكاد يلم بهذا الخاطر الأحمر، أو كان هذا الخاطر الأحمر لا يكاد يلم به، حتى تأخذه رعدة عنيفة؛ فقد كان ضيقاً بشهرزاد أشد الضيق، ولكنه كان يجد سعادته في هذا الضيق، ولذته في هذا الألم، وراحة نفسه في تعبها من هذا الغموض، ومن يدري! لعله لو انجلت له نفس شهرزاد وألغيت بينه وبينها الحجب، فرأها واضحة ناصعة كأنها فلق الصباح، لامتلاّت نفسه حزناً وحسرة؛ فإن العشاق لا يكرهون شيئاً كما يكرهون الراحة المطردة، ولا يضيّقون بشيء كما يضيّقون بهذا الوضوح الجلي، هم في حاجة دائماً إلى أن يشكوا، فهم في حاجة دائماً إلى أن يجدوا مصدراً للشكوى، هم كطلاب المثل العليا، لا يقربون منها إلا لتبعد عنهم، ولو قد بلغوها وانتهوا منها إلى ما يرضيهم لكانوا أشقى الناس بذلك وأشدّهم عليه سخطاً؛ فسعادتهم في الطموح المستمر والجهاد المتصل، لا في بلوغ الغاية والانتهاء إلى الأمد.

بهذا كله وبأكثر من هذا كله كانت نفس شهرزاد تضطرب حين أوى إلى سريره من تلك الليلة، وقد أرقته هذه الخواطر شيئاً، ولكن النوم لم يلبث أن أسرع إليه واشتمل عليه، ثم سمع فيما يسمع النائمون حين يلم بهم طائف الحلم كأن قائلًا يقول له: «إنك لضعيف مغرور، تُعْنِي نفسك في غير عناء، وتشق عليها في غير مصدر للمشقة. أنت مشوق إلى قصص شهرزاد لا تستطيع عنه صبراً، فهل علمت أنها هي أيضاً مشوقة إلى هذا القصص لا تستطيع عنه إعراضاً؟ أنت ضيق بغموض شهرزاد لا تستطيع له احتمالاً، فهل علمت أنها هي أيضاً ضيقة بوضوحك لا تستطيع له استقبلاً؟ أنت تريد أن تلهو عن غموض شهرزاد بما تقص عليك من حديث، وهي أيضاً تريد أن تلهو عن وضوحك بما تقص عليك من أخبار. أنت ترى فيها المرأة الماكرة التي لا تؤتمن والتي لا تحتمل عشرتها إلا أن يستعان عليها بما يلهي عنها، وهي ترى فيك الرجل القاتل الغادر الذي يلتمس لذته حتى إذا ظفر بها ألغى مصدرها إلغاء، فلا سبيل إلى اتقاء شره إلا بتلهيته والتلهي عنه. أنت مشوق إلى أن تسمع منها وإلا قتلتها، وهي مشوقة إلى أن تتحدث إليك وإلا قتلتك، وقد انتهت أحاديثها إليك في اليقظة، ولتبدأن أحاديثها إليك في النوم، وستجد أنت لذة في هذه الأحاديث، وستجد هي راحة في هذه الأحلام. أفق إذًا من نومك واذهب إلى غرفتها متلطفًا مترفقًا، فإذا بلغتها فاجلس من سريرها غير بعيد وانتظر، فستسمع منها ما يرضيك.»

وقد خيل إلى شهرزاد أن طائفه ذاك قد ألقى إليه حديثه هذا الطويل في وقت يعد له طولاً كما تعود الناس أن يتحدث بعضهم إلى بعض، ولكنه لو اطلع لرأى أن طائفه ذاك